المجلة الجزائرية للمخطوطات المجلد 08 / عدد خاص جوان 2012، ص 90– 105

نماذج من الكرامات الظاهرة للشيخ محمد بن عمر الهواري

من خلال كتاب البستان لابن مريم

Examples of the apparent dignities of Sheikh Muhammad bin Omar Al-Hawari through the book Al-Bustan by Ibn Maryam

الصادق زياني*

جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة (الجزائر)،

ملخص:

عرفت بلاد المغرب الأوسط خلال القرن9 هجري/15ميلادي انتشارا واسعا للحركة الصوفية، كان من أبرز أقطابها على سبيل المثال لا الحصر محمد بن عمر الهواري، هذه الشخصية الفذة وأمثاله كثر خلال هذه الفترة لم يكونوا السباقين لهذا التوجه السني الراقي، بل سبقهم لذلك فطالح من المشايخ والصالحين، حفلت كتب التراجم والسير، وكذا كتب التاريخ والوفيات بتراجم لهم، استأنس بها الباحثين في دراساتهم لمعرفة مدى تطور هذه الظاهرة المميزة، والتي مثلت طفرة بارزة في الحياة الدينية ببلاد المغرب الأوسط منذ بداية ظهوره وبالأخص القرن السادس إلى السابع للهجرة/12-13ميلاي.

الكلمات المفتاحية: الهواري ؛ التصوف ؛ الكرامات ؛ البستان، ابن مريم

Abstract:

During the AH 9th / AD 15th century, the countries of the Middle Maghreb knew a wide spread of the Sufi movement. One of its most prominent figures was, for example, but not limited to Muhammad bin Omar al-Hawari. And the righteous, the books of biographies and biographies, as well as the books of history and deaths, were full of their translations, which researchers sought in their studies to find out the extent of this distinctive phenomenon, which represented a significant leap in religious life in the countries of the Middle Maghreb since its beginning, especially the sixth to seventh centuries AH / 12-13 AD

*المؤلف المرسل

مقدمة:

عرفت بلاد المغرب الأوسط خلال القرن9 هجري/15ميلادي انتشارا واسعا للحركة الصوفية، كان من أبرز أقطابها على سبيل المثال لا الحصر محمد بن عمر الهواري، هذه الشخصية الفذة وأمثاله كثر خلال هذه الفترة لم يكونوا السباقين لهذا التوجه السني الراقي، بل سبقهم لذلك فطالح من المشايخ والصالحين، حفلت كتب التراجم والسير، وكذا كتب التاريخ والوفيات بتراجم لهم، استأنس بها الباحثين في دراساتهم لمعرفة مدى تطور هذه الظاهرة المميزة، والتي مثلت طفرة بارزة في الحياة الدينية ببلاد المغرب الأوسط منذ بداية ظهوره وبالأخص القرن السادس إلى السابع للهجرة/12-13ميلاي.

وقد تميز الشيخ الهواري رحمة الله عليه بمناقب وصفات رفعته إلى مرتبة الصالحين، فعلمه الذي أخذه على علماء وفقهاء أجلاء خلال رحلاته من مسقط رأسه إلى المشرق والمغرب قبل أن يستقر بوهران، قد مكناه من اكتساب رصيد علمي هائل سمح للشيخ من أن يكون فريد عصره وزمانه.

والأكيد أن لكل رجل صالح، ومتصوف سني آثاره، فمنها العلمية من مؤلفات خلدت لشخصيته العلمية والدينية، بل أصبحت إلى وقت قريب كرامة حفظت كل مطلع ومحافظ على قراءتها كما هو حال مؤلف الشيخ الهواري" كتاب السهو"، وآثار عرفانية مثله مثل الرجال الصالحين، والذين وهب لهم الله من نعمه أن قدر لهم علم الغيبيات والآجال، وأبواب الرزق، والغايات، ومنتهى السبل، والاستجابة للدعوات، حتى سطع نجم الشيخ الهواري، فأصبح مزارا للكثيرين من العامة، وغير العامة ونقصد من المشايخ والعلماء والسلاطين، للتبرك به، ومجالسته انتفاعا بعلمه وصلاحه، ورأيه السديد.

ولعل كتاب البستان لصاحبه ابن مريم المديوني (ت "على الأرجح" 1025هـ/1616م) والذي اعتمد أنموذجا للدراسة، يعتبر من المؤلفات التي ترجمت لحياة ومناقب الشيخ الهواري وغيره، بالاعتماد على من عايش زمن الشيخ، أو جلس في مجلسه، أو سمع عنه، أو قرأ لمؤلفاته، وفي هذا الكتاب حصرنا بعضا من الآثار العرفانية للشيخ الهواري.

ومن أهم التساؤلات التي شكلت محورا للموضوع المطروق هي: ماهي المناقب الصوفية التي ميزت شخصية الشيخ الهواري خلال عصره حتى صار من الرجال الصالحين؟ ومن هي الشخصيات التي عاصرت زمانه، وجالسته في مجلسه، وروت عنه عجائبه وخوارقه؟

وأيضا: ماهي أهم الآثار العرفانية التي ثبتت عن الشيخ الهواري من خوارق وكرامات وغيبيات؟ وهل في خوارقه تلك إسهامات في الجوانب التي تساعد في ترقية المجتمع وتنوير عقول أفراده؟ أم هي خوارق من الخيال زادت في تعميق جهل وانزياح المجتمع نحو الإيمان بالشعوذة والسحر والفكر الصوفي الخرافي؟

– لمعالجة هذه الإشكاليات قمنا بقراءة وتحليل المعلومات الواردة في المصادر ككتب السير والتراجم، والتاريخ والطبقات، مع التركيز على المعلومات التي وردت في مؤلف ابن مريم المديوني كأنموذج لدراسة شخصية وآثار الشيخ الهواري، مع ربط كل خوارقه وعرفانيته بتوفيق الله وإرادته لحصولها، أي بفضل الله قدر للشيخ أن يتنبأ أو يدعو فيستجاب، أو يكاشف فيصدق، وكانت دراستنا على النحو الآتي:

المناقب الصوفية في شخصية سيدي محمد بن عمر الهواري

أ–أخلاق المتصوفة: الرحمة–الزهد–التواضع–التقوى...

إن شهادات من عاصر الولي الصالح العارف بالله، وقطب الصوفية ببلاد المغرب الأوسط حول مناقبه وصفاته التي ميزت شخصيته الصوفية، تتحد كلها في تبجيله وتوقيره الكبير، فتربيته والعلوم التي أخذها عن علماء كبار على غرار عبد الرحمن الوغليسي(ت786هـ/1384م)[1]، الذي قرأ عليه كتاب التهذيب للبرادعي وكذا أحمد ابن القاسم القباب(778هـ/1376م)[2]، بالإضافة إلى رحلاته العلمية الطويلة، والتي خاض فيها الشيخ الهواري دروبه بين فاس والمشرق حتى عودته الى مستقره الأخير وهران[3]، كل هذه المراحل المهمة في حياته تكون قد تكونت للشيخ من خلالها مناقب ومواصفات المتصوفة والولي الصالح.[4]

من صفاته رحمة الله عليه أخلاقه الفاضلة، والتي كانت القاسم المشترك والذي تخللت كل أصحاب الاتجاهات الصوفية المختلفة، ويتجلى ذلك في قيم الرحمة والإيثار والإحسان والتنزه من الكبر،

وكذا الزهد والتقوى، والتي جعلها الشيخ وكغيره من المتصوفة من مكوناته الشخصية[5]. هذه الصفة لا نلمحها في متصوفة القرن التاسع للهجرة فقط فيبرز الأستاذ الطاهر بونابي بأنها ميزت اغلب الأولياء منذ القرنين السادس والسابع للهجرة[6] .

وجمع لنا الأستاذ محمد بوشقيف بعضا من الصفات الفذة للشيخ الهواري من خلال كتاب روضة النسرين منذ كان صبيا، فيورد انه عرف منذ صباه بالخصال الحميدة أيام كان يجلس بين يدي معلمه الشيخ علي بن عيسى لما حفظ عنه الكتابة والقراءة وحفظّه القرآن الكريم، وهو ما لفت انتباه والده، فحظي باهتمامه ورعايته المتواصلة.[7]

ب- الولاية الصالحة في شخصيته:

من مناقبه ولايته الصالحة رحمة الله عليه، أن شهد له بالصلاح واعتقد في علمه الصوفي وبركته، وفي هذا يورد صاحب البستان أن أحد الشيوخ وهو سيدي الحسن بن مخلوف لما وصله من علم وصلاح الشيخ واشتهاره بين العام والخاص اشتهارا عظيما، سافر من حاضرته تلمسان الى الشيخ الهواري حافي القدمين راجلا مترجلا حتى قعد بين يديه تأدبا واحتراما وعرفانا ببركته وصلاحه التي لا نظير لهما.[8]

لقد كانت شخصية الشيخ الهواري الصوفية في تلك الفترة ونقصد النصف الأول من القرن التاسع هجري محل توقير واحترام الكثير ممن عاصره، ويروي لنا ابن مريم كذلك شهادة عن مدى انبهار كل الشرائح الاجتماعية في ذلك العصر بالمغرب الأوسط وغيره من الأوطان، والاعتقاد بصوفيته وتقواه وصلاحه، وليس فقط العامة من المجتمع بل حتى من فئة العلماء والفقهاء، وفي هذا يقدم لنا ابن مريم احد نماذج صفاته حين تحدث عن قصة اعتراض أحد الفقهاء وهو الفقيه أبو زيد عبد الرحمن والمعروف بالمقلش على ما ورد من سهو لغوي في كتابه المشهور" السهو"[9]، فبعدما قدم عليه ورد إليه تصويباته فيما جاء من خطأ لغوي في كتاب الشيخ، حتى انشد فيه بيتا جاء فيه:

وما ينفع الإعراب إن لم تكن تقى!وما ضر ذا التقوى لسان معجم

ومن شدة وقاره للشيخ، واعتقاده بشخصيته ومناقبه الصوفية الصالحة، ضل الفقيه عبد الرحمن المقلش يرتعش من يومها لمعرفته بخطئه تجاه شيخه الصالح بن عمر الهواري، حتى توفي وهو على حاله تلك.[10]

ت– التواضع بعلمه وفقهه أمام العلماء والمشايخ:

الحقيقة أن مناقب الشيخ الهواري لا تعد ولا تحصى، فيكفيه تواضعه العلمي والأدبي، واتصافه بصفات الفقر العلمي والثقافي أمام أمثاله من الفقهاء والعلماء، والتي نجدها في نفس الشهادة السابقة التي أوردها صاحب البستان، يقول في ذلك ابن مريم على لسان الشيخ الهواري:"وأما سهوي فهو سهو الفقراء، إنما ينظرون فيه للمعنى، ومن أين العربية والوزن لمحمد الهواري؟"[11]. إن الثقافة المعرفية للشيخ الهواري تتجاوز كل حدود السهو اللغوي في كتابه "السهو"، فتجربته اللغوية–الدينية في التعلم كانت على يد معلمه الشيخ علي بن عيسى، ثم على يد شيخ شيوخ بجاية الوغليسي، ثم على يد فقيه الفقهاء وقاضي القضاة عبد الرحمن القباب، كما أخذ عن الحافظ العراقي، وعلماء أجلاء في رباط الفتح بمكنة أيام استقر بها، وهو ما يجعله قامة أدبية لا يمكن لها أن تسهو في وزن أو إعراب.[12]

ومن صفاته الجليلة تواضعه أمام العلماء، وتوقيره للفقهاء، والوقوف بعلمه بسيطا أمام علومهم، وفي هذا يروي صاحب البستان أنه بمقام الشيخ الهواري بوهران، سأله أحدهم ممن جلس بمجلسه ذات يوم، وقد كان شاهدا حينها على مسألته الشيخ عبد الحميد العصنوني، وكان سؤال الرجل على مسألة، فمن تواضعه أمام شيخ تلمسان الأول محمد بن مرزوق قال للرجل:إنما يجيب عن هذه المسألة ابن مرزوق. إنه وعلى الأرجح فالشيخ الهواري يكون عنده من الإجابة على المسألة الشيء الأكيد، ولكن وقاره وتواضعه أمام شيخ شيوخ تلمسان قد جعله يتأدب في الإجابة في حضرة ابن مرزوق.[13]

ث–ملامح البركة والكرامة الصوفية:

من مناقبه الدالة على كراماته وبركته، أنه لما كان كثير الترحال في سياحته شرقا وغربا، برا وبحرا، كانت السباع والوحوش تأوي إليه، ملتفة حوله، دون أن تأذيه. وقد أورد ذلك صاحب البستان

فيقول:" ثم سافر للقدس لرؤية بيت المقدس والصلاة بها. وجال في بلاد الشام، وكان في جامع بني أمية يأوي في سياحته لغيضة ملتفة فتأوي السباع والوحوش العادية.."[14]. وما قول الشيخ إبراهيم التازي للشيخ منصور بن عمر الدليمي لما لم يغتنم الفرصة بطلب بركة الشيخ الهواري عندما زاره بوهران إلا دليل على اتصافه بالكرامة والصلاح، حيث يقول صاحب البستان:"فقال لي(ويقصد التازي): قد أمكنتك (ويقصد الدليمي) فرصة من الشيخ (أي الهواري) فلم تغتنمها"، ولعلم الشيخ الدليمي بمناقب الهواري وكراماته، وما اخذ عليه الشيخ التازي الذي كان خليفة الهواري لما انتقل الى رحمة ربه سنة 843هـ/1439م كانت إجابته فيها الكثير من الحسرة:"لشدة غباوتي وعظم بلادتي سافرت ولم اطلب من الشيخ..."[15].

إن هذه المناقب قد مكنت للشيخ من أن يكون أحد أقطاب التصوف ببلاد المغرب الأوسط، فسار للتعلم ومجالسته لما ذاع صيته واشتهر بين العلماء والعامة، الكثير من المشايخ والطلبة والناس، فتبرك ببركته الكثيرون، وحمل عنه العلم مشايخ كان أبرزهم الشيخ التازي الذي عمل عباية التصوف من بعد الشيخ الهواري رحمة الله عليه.

الآثار العرفانية: صور من الكرامات الظاهرة للشيخ الهواري في كتاب البستان

أ- فيما يسر الله للشيخ من علم بغيب الرسائل ومكاشفاتها:

من المؤكد أن كرامات الأولياء جائزة عقلا ومعلومة قطعا، فالمعجزات تختص بالأنبياء، والكرامات للأولياء الصالحين، وقد جاء عند صاحب كتاب التشوف أنه يجوز التصديق بخوارق العادات في معارض الكرامات، وجاء على لسان الشيخ أبو حامد الغزالي بأنها مما لا يستحيل في نفسه كرامات الأولياء، لأنه ممكن لا يؤدي إلى محال[16]. وفي هذا ما ذكر من أخبار عما نبأ به شيخنا الجليل، وقطب المتصوفة الهواري من غيبيات ألهمها له الله سبحانه تعالى، حتى عرف عنه الصلاح والبركة.[17]

يروي صاحب البستان مما ذكره الشيخ الولي العلامة سيدي سليمان بن عيسى عن أخبار كرامات شيخنا الهواري فقال: "كتبت للشيخ سيدي محمد الهواري كتابا فيه نحو السبعين سطرا أشكو إليه

فيه بأمور وأسأله عن أمور، فلما ذهب رسولي بالكتاب بدا لي وقلت: لعل الرسول لا يضبط جواب الشيخ فتبعت الرسول. فسبقني إلى الشيخ(الهواري) وأعطاه الكتاب وقال له: هذا كتاب سيدي سليمان بن عيسى الذي بهوارة. فقال له الشيخ: أنت سقت الكتاب أم صاحب الكتاب؟ فتعجب ولم يفهم كلام الشيخ. فدخلت عليه على الفور فوجدته يقول للرجل: أنت سقت الكتاب أم صاحب الكتاب؟ والرجل يراجعه ويقول له: هذا كتاب سيدي سليمان. فلما سلمت على الشيخ رآني الرجل وتعجب من مقالة الشيخ ومن كوني تركني بهوارة.."[18]

إن هذا النموذج مما ذكر عن علم ما غاب عن العامة، ما هو إلا تفضيل من الله لمثل هؤلاء الرجال الصالحين، وما كان لهم هذا الفضل إلا بإذن الله، فمعرفة شيخنا الهواري بقدوم صاحب الكتاب يتبع كتابه، وقد غاب الأمر عن الرسول ما هي إلا كرامة من كرامات الشيخ وهبها له العلي القدير.

إن قدرة الشيخ الهواري على معرفة ما ورائيات الأشياء يؤكده صاحب البستان حين يقول:" وبقي الكتاب مطروحا بين يدي الشيخ(الهواري) ولم يرفعه ولم يفك عنوانه ولم يسألني عما فيه، ثم شرع في جواب ما كتب سطرا سطرا على الترتيب حتى أتى على آخره.." إن هذا العلم الغيبي يؤكد مما لا يدع من شك آثار الشيخ الهواري العرفانية وعلمه الظاهر للأشياء، والتي هي غيبيات عند العامة، وما هذا إلا تفضيل لرجال عن رجال.[19]

إن شدة العجب من خوارق الشيخ، قد بلغت بالكثيرين بمدحه، ومدح خوارقه، وهذا الشيخ سليمان بن عيسى سالف الذكر قد ألف في شيخه الهواري قصيدة تزيد عن ستين بيتا، وقيل تزيد عن السبعين.[20]

ومما يروى على مقدرة سيدنا الهواري على علم ما بالرسائل والكتب الواردة عليه، ما يتعجب منه الوارد القادم بالكتاب، فقد وهب الشيخ من العلم بإذن الله تعالى ما يصور له من الغيبيات، وفي هذا ما روى صاحب البستان أيام زيارة السلطان الحفصي للمدينة[21] قائلا:".. وكتب له السلطان (والراجح أنه يقصد السلطان أبو فارس عبد العزيز (798-838هـ/1394-1434م)[22]. بعد أن طلع من عند

الشيخ (ويقصد الشيخ سيدي الحسن بن مخلوف) وطبع بطابعه على مكتوبه، ودفع الكتاب غلى الشيخ سيدي بختي خديم الشيخ سيدي محمد الهواري قال سيدي بختي: فلما دخلت على الشيخ(الهواري) بكتاب السلطان قال لي قبل أن يرى الكتاب، وقبل أن أذكر له السلطان ولا أخبره بشيء: يا بختي لا حاجة لنا بصحبة السلطان، وما الذي ساقنا إليه؟"[23].

إن هذه الرواية تؤكد مرة أخرى على ما وهبه الله لهذا الشيخ الجليل من قدرة على معرفة أسرار ما بالكتب ومن أين جاء بها حاملها، وهذه المعرفة الغيبية تكون قد أبهرت الكثيرين ممن عرف الشيخ عن قرب فما شكك في معرفته أحد ممن عايش وقته وعصره، وما يمكن لنا إلا أن نقر بصلاح الشيخ وعلمه وقدراته الخارقة في الكشف عما هو مستور بإذن الله تعالى.

ب- فيما وهب الله للشيخ من قدرة على معرفة الغيب من الأجل وصفته

في كتابه البستان يورد ابن مريم شهادته على مقدرة الشيخ بن عمر الهواري على المكاشفة، ومعرفة الأشياء الخفية عن العامة بإذن الله، فيروي من خوارقه في معرفته بأجل(وفاة) الناس من معارفه، ففيما ذكره الشيخ الولي الصالح سيدي عبد الحميد العصنوني وهو من أهل ونشريس، قال وهو في زيارته للشيخ الهواري بوهران:" زرت الشيخ سيدي محمد الهواري نفعنا الله بعلمه بمدينة وهران فسلمت عليه وجلست، فسأله شخص عن مسألة في علم، فقال له الشيخ: إنما يجيب عن هذه المسألة ابن مرزوق الذي ليس عنده ولد".[24]

إن الإجابة التي قدمها الشيخ الهواري لصاحب المسألة تكون قد جعلته يتعجب لا محالة، لأن الكل كان يعلم بأن ابن مرزوق قد كان له من الولد اثنين، والأكيد أن هذه الإجابة إنما هي مكاشفة، وعلم من الغيب قد وهبها الله لشيخنا الهواري، فما علمه بقرب أجل ولدي ابن مرزوق إلا من الغيبيات التي لا يهبها الله إلا لأنبيائه كما كان من فضله على سيدنا الخضر يوم امتحن سيدنا موسى، ولا يهبها الله إلا الصالحين من أمثال المتصوفة العلماء الزهاد كشيخنا الهواري.

لقد تأكدت مكاشفة الشيخ الهواري في أجل أولاد محمد بن مرزوق، فها هو صاحب البستان يقدم شهادته في تجلي نبوته بالغيبيات، فيقول ابن مريم:" فلما ذكرت(ويقصد الشيخ الولي الصالح سيدي عبد الحميد العصنوني) للشيخ سيدي محمد ابن مرزوق ما قاله سيدي محمد الهواري قال: الحمد لله الذي أراحني منهما، يعني من ولديه، وفهم من قول الشيخ أنه كوشف بعدم بقائهما وأنهما يموتان عن قريب، فكان الأمر كذلك (أي توفي فعلا ابني الشيخ ابن مرزوق)[25].

يرى التاذلي أن الكرامات إنما هي لأهل اليقين دون غيرهم، واليقين هو زوال الشك من الأشياء، إنما أوردنا ماجاء من كرامات وما ذكر من مكاشفات الشيخ الهواري، لأنه ليس من شك في علمه وزهده، وليس من شك في كراماته وصدق مكاشفاته، فإنما قد تؤكد من صدقها من عايش زمانه وقعد في مجلسه ونقل عنه، فأين نحن من زمانهم، وأين نحن من علمهم وصدقهم وأمانتهم.[26]

ومما يروى عن قدرة شيخنا على معرفة الأجل والتنبؤ به، ما أورده صاحب البستان حين ذكر أيام الشيخ الطاغي الظالم عثمان بن موسى المسعودي العامري، وقد كان ظالما جائرا سافكا لدماء الناس، ويروى انه قد أصاب ظلمه بعضا من أقرباء الشيخ محمد الهواري رحمة الله عليه، حينما اخذ مالا من بعض أهل وأقرباء الشيخ، وفيما يروى أن الشيخ الهواري قد راسل هذا المستبد الظالم لرد ما أخذه من أهل عشيرته، ورهبه بالأمر وعاقبة السوء إن لم يستجب لما أمره به؛ الأكيد أن طغاة ذاك الزمان اغتروا بأنفسهم، واستهانوا ببركة الشيخ وتصوفه وعلمه، بل بقدراته الخارقة، فما كان من الطاغي بن موسى إلا وتحدى الشيخ الهواري بتكبيل خادمه حامل رسالته المسمى بختي.[27]

وقد أورد صاحب البستان ما كان من ردة فعل الشيخ لما سمع بما جرى، قائلا:"فجاء الخبر أن خديمه الذي بعث معه الكتاب كبله عمان بن موسى، فغضب الشيخ غضبا شديدا حتى اسود وجهه وقام على الفور ودخل خلوته ساعة وسمعته (ويقصد إبراهيم التازي) يقول:مفرطخ مفرطخ.." مكاشفا بصفة هلاكه.[28]

ويكون الشيخ قد علم بكيفية موت عثمان الغاصب لأموال أهله، واجله بالتحديد، ويروى أنه قد مات مفرطحا لما كان بعرس على خيله، وقد جاء الخبر على الناس بأن اللص عثمان قد قضى اجله بالأمس، وان الله قد أهلكه هلاكا غريب فاحشا، وأن الشيخ قد عجل عليه وعلم متى وكيف موته واجله. الأكيد أن صلاح الشيخ في دعائه قد كانت صادقة وأن الله استجاب لدعاء الشيخ دون تأخير، فبركته أجل من أن يسرق غاصب مال أهل الشيخ.[29]

ت– آيات التوفيق الإلهي للشيخ الهواري في العلم بأبواب الرزق والعاقبة

يقول التادلي في كتابه التشوف أن أعظم كرامات الله لعباده تيسير أسباب الخير وإجراؤه على أيدي هؤلاء المتصوفة الصالحين، وعلى أيديهم يتيسر الخير ويتعسر أسباب الشر عنهم. وحيثما كان التيسير أكثر كانت الكرامات أوفر. فمن آيات الله في عباده الصالحين أن منَّ عليهم بتوفيق لتيسير الرزق لمن أرادوا، تسهيل الصعب مما كدر الحياة على أصحابها من العامة أو غيرهم.[30]

لقد جاء في كتاب البستان بعضا من توفيق الله للشيخ الهواري في تيسير الخير للناس، وهم في غيب عما سيحل برزقهم أو طرقهم أو أحوالهم، ففي رواية عن تيسير سبل الرزق جاء عن ابن مريم قوله:".. فدخلنا مرة وهران فذهب المشايخ أصحابي الى الشيخ سيدي محمد الهواري فذهبت تابعا لهم من غير غرض لي فسألني عن حرفتي فذكرت له معاشرة العرب وصحبتي لهم. فقال لي: فارقهم تربح ربحا عظيما... ما أعظم الخير الذي يصل إليك..."[31]. وقد صحت آية الله في تحقيق وتوفيق الشيخ الهواري لعاقبة هذا الرجل في الرزق، فالغيب لا يعلمه إلا الله، والخير فيما اختاره الله وصدق به علمائه وصلحائه الأجلاء من أمثال الشيخ الهواري الذي صدق وعده.

يقول ابن مريم على لسان الرجل:" ثم صرت أخرج إلى الجبل الذي أعلى تلمسان واطلب الكنوز مدة، وظننت أن الخير الذي وعدني به الشيخ سيدي محمد الهواري عند مفارقة العرب هو الخير الدنيوي بجهلي واستغراق قلبي في محبة الدنيا فلم أقدر خيرا سواها...وبعد أن عرفت هذا الخير الأخروي واتضح لي خسة الدنيا وشهوتها اتضح لي مراد الشيخ سيدي محمد الهواري نفعنا الله به آمين".[32]

ويروي صاحب البستان توفيق الله للشيخ في معرفة ساعة الخير وتيسر الطريق، ومقدرته على معرفة الطقس وحاله، وكل هذا إنما هو من آيات الله في توفيق الشيخ للعاقبة الصحيحة. ففيما يذكره ابن مريم أن الشيخ منصور بن عمر الديلمي أراد الخروج في سفر رفقة من معه من الشيوخ وصحبه، فلما استأذنا الشيخ للرحيل لم يأذن لهم، وهو على علم لماذا وهم له منكرون، وقد غص في قلبهم حب الرحلة بعيدا إلى تلمسان خوفا من تقلب الطقس وشدة أحوال شتاؤه وقد كان الشهر دجنبر(ديسمبر) أو أوائل يناير(جانفي) وهو فصل الشتاء.[33]

ومن توفيق الله للشيخ بمعرفة العاقبة، وهي من آيات الله وخوارقه التي مكن إليها شيخنا الهواري، فقد سمح لهم بالرحيل لما ثقل السحاب واظلم الجو وكثر المطر وهو ليس بيوم محبذ للسفر، وقد ودع الراحلون شيخهم وهم في شك مما أمرهم به، وهو على عليم بتوفيق الله بعاقبة الأمور لهم، فيقول صاحب البستان في هذا:" فخرجنا والمطر يصب علينا فلم نجاوز قريبا من باب البلد إلا والمطر قد ارتفع وإذا السحاب قد انقشع وظهرت الشمس أحسن ظهور ولا ريح معها ولا برد فجئنا نتقلب في نعم الله تعالى.."[34].

وقد مكن الله له في معرفة مآل أصحابه الذين رحلوا عنه إلى تلمسان، انه قد عرف حفظ الله لهم من اللصوص لما مروا بهم، فيقول في هذا ابن مريم:" ولقينا جماعة من الخيل قاصين لقطع الطريق وتعرضوا لنا فغل الله تعالى أيديهم وبقوا باهتين ينظرون إلينا حتى غبنا عنهم، فلما وصالنا تلمسان تغيمت السماء وكثر المطر والثلج ودام ذلك مدة طويلة فتعجبنا من مكاشفة الشيخ..."[35].

الخاتمة:

من خلال ما مر بنا نخلص إلى أن شخصية محمد بن عمر الهواري تعتبر من أهم الشخصيات الصوفية التي برزت ببلاد المغرب الأوسط خلال القرن التاسع هجري. ولعل المميزات التي اكتسبها من خلال احتكاكه بشيوخه الأفذاذ لما كان في رحلته لطلب العلم والحج، قد مكنته من أن يصبح من المتصوفة السنيين، ويتوجه إلى إنجاح أبعاده الروحية والإصلاحية.

أن من آثار الشيخ العرفانية الكثيرة والعديدة، والتي ذكرت نماذج منها في كتاب البستان، أن أكرم الله على الشيخ الهواري بمعرفة غيب الرسائل حاملها ومحتواها قبل أن يصل بها المرسل، ومكاشفته لأسرارها عند وصول المرسل بحقيقة ما حواه المكتوب الذي يحمله، فسبحان من يهب لعباده الصالحين أبواب المعرفة وكرامة الكشف عما هو غيب عند عامة الناس.

أن من الآثار العرفانية كذلك أن وهب الله للشيخ القدرة على معرفة الغيب من الأجل(الموت)، لمن يقرب له أو من غيرهم، وفي هذا ما ذكر من نماذج عن أبناء محمد بن مرزوق التلمساني، والأعجب من ذلك أن وهب الله لعبده الصالح العرفانية ليس بأجل الرجل بل أكثر من ذلك بكيفية وسبب موته. وهذا نموذج الطاغي الظالم عثمان بن موسى المسعودي العامري لما عاث في أهل الشيخ وأقربائه نهبا وظلما، ولم يسترق السمع لأمر الشيخ لما أمره عن الكف وإرجاع اغتصب من الحقوق لأهلها، فكانت نهايته على يد الشيخ وبالسبب الذي كاشف به أصحابه في مجلسه لما أغضبه تعنت بن موسى ورفضه الانصياع.

أن من آيات التوفيق الإلهي للشيخ أن مَنَّ الله عليه العرفانية في أبواب الرزق وعاقبة أمور الناس، فسبحان المنان القادر. ومن النماذج التي دلت على عرفانيته في أبواب الرزق ومعرفته لعاقبة الناس ما ذكرناه عن الشيخ منصور الدليمي، وعن الرجل الذي كان بصحبة المشايخ لما أنبأه برزقه وهو عنه غافل.

الهوامش:

(1) هو الشيخ الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي من مشايخ القرن الثامن هجري، كان مولده ببجاية، عرف بالسبق في العلوم الدينية حتى لقب بشيخ الجماعة، قال ابن الخطيب أنه توفي رحمة الله عليه ببجاية سنة 786هـ/1384م، من آثاره كتاب الفتاوى، والمقدمة المشهورة، أخذ عنه جماعة كأبي الحسن علي بن عثمان وبلقاسم بن محمد المشذالي فقيه بجاية، وبن عمر الهواري، وغيرهم. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج في تطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس،1989، ج1-2، ص248؛ وينظر: شجرة النور الزكية، ص 237؛ ينظر كذلك: مسعود بريكة، "المتصوفة والسلطة الحفصية"، مغرب أوسطيات (دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الوسيط)، منشورات مكتبة اقرأ، قسنطينة-الجزائر، 2013، ص ص 113-140.

(2) هو أحمد بن قاسم بم عبد الرحمن المشهور بـ "القباب". تولى الفتوى بفاس وله فتاوى مشهورة، كان صاحب المعيار له فيها نصيب من الاعتماد في كتابه، من فقهاء الكبار للقرن الثامن هجري، تول قضاء جبل الفتح، حضر ابن الخطيب القسنطيني مجالسه وقال عنه أنه شيخ وفقيه حافظ، توفي سنة 779هـ/1377م. من مؤلفاته "شرح على قواعد عياض"، و "شرح بيوع ابن جماعة". ابن قنفد القسنطيني، كتابالوفيات، مؤسسةنويهضالثقافيةللتأليفوالترجمةوالنشر، بيروت،لبنان، 1982، ص 372؛ نيل الابتهاج في تطريز الديباج، ج1-2، ص ص102-104؛ شجرة النور الزكية، ص 235.

(3) ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء من تلمسان، بدعم من وزارة الثقافة، منشورات سهل- مطبوعات المؤسسة الوطنية للفنون الجميلة، الجزائر، 2009، ص 248.

(4) محمد بوشقيف، تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين(15/14م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ والآثار، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2010-2011م، ص ص 35-36.

(5) المزاري، طلوعسعدالسعودفيأخباروهرانوالجزائروإسبانياوفرنسا إلىأواخرالقرن 19م، تحقيق ودراسة: يحيبوعزيز، دارالغربالإسلامي، بيروت، 1990، ج1، ص ص68-69.التنبكتي، نيل الابتهاج في تطريز الديباج، ج1-2، ص ص 516-517.

(6) الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7هـ/12و13م، مطبوعات دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص 167.

(7) محمد بوشقيف، تطور العلوم، ص 36.

(8) ابن مريم، البستان، ص 249.

(9) عرف عليه اشتغاله في الفقه وفروعه، فترك لنا الكثير من الآثار في هذا الجانب، فمن مؤلفاته كتاب السهو، وقد قال عنه مؤلفه:" قد ضمن لكل من يقرأه واعتنى به أن لا يجوع ولا يعطش ولا يعرى، وهو مضمون في الدنيا والآخرة. لذا فقد كان الكثير من العلماء على غرار التازي، والملالي، وشيخه التالوتي، كانوا يقرؤون ويطالعون كتاب السهو ويتبركون بحمله لما فيه من بركات الشيخ، كما ألف الشيخ الهواري كتب أخرى في الفقه منها"كتاب التنبيه" و"التسهيل". ابن مريم، البستان، ص 162؛ التنبكتي، نيل الابتهاج، ج1-2، ص ص 516-517.

(10) البستان، ص 249.

(11) نيل الابتهاج، ج1-2، ص 517؛ البستان، ص 249.

(12) محمد بوشقيف، تطور العلوم، ص 36 و152.

(13) البستان، ص 250.

(14) نيل الابتهاج، ج1-2، ص 516؛ البستان، ص 248.

(15) البستان، ص 255.

(16) التاذلي(ابن الزيات)، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق:أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1997، ص54.

(17) مما ذكر من خوارق وكرامات ومكاشفات الشيخ الهواري في المصادر مروية على من عاش بزمانه، ينظر: البستان، ص 255؛ تعريف الخلف، ج1، ص 170؛ نيل الابتهاج، ج1-2، ص 517.

(18) البستان، ص 249.

(19) المصدر نفسه، ص 250.

(20) المصدر نفسه، ن.ص.

(21) حول أوضاع بلاد المغرب الأوسط خلال مرحلة الصراع الثلاثي الزياني-الحفصي-المريني في هذه الفترة حتى اعتلاء أبي فارس عبد العزيز الحكم الحفصي، ينظر: الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق:محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966، ص 114-130؛ روبار برنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج1، 196-243.

(22) للاستزادة حول شخصية السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز، ينظر: الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص 114-131؛ وينظر كذلك: الصادق زياني "مؤلفات علماء قسنطينة في علم الفقه على العهد الحفصي-كتاب الأجوبة لابن يونس القسنطيني أنموذجا-، ضمن أعمال الملتقى الوطني حول قسنطينة، كلية الآداب والحضارة الاسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 27-28 نوفمبر 2016م.

(23) البستان، ص ص 251-252.

(24) المصدر نفسه، ص 250.

(25) نفسه، ص 251.

(26) التشوف، ص ص 55-56.

(27) البستان، ص 252.

(28) يقول ابن الزيات:" أما انخراق العادات بإجابة الدعوات فمتفق عليه دون خلاف..."، وهو الأمر الذي نجده في رواية صاحب البستان حين استجاب الله لدعاء الشيخ الهواري، حتى علم بصفة موت الظالم، يتحدث ابن مريم قائلا:" ودخل خلوته ساعة وسمعته يقول: مفرطخ مفرطخ، كأنه يبين لمأمور بإهلاكه صفة هلاكه...قد عجل عليه الشيخ يعني اشتد غضبه فدعا عليه.أهلك الله اللص". ينظر: التشوف، ص 58؛ البستان، ص 253.

(29) نيل الابتهاج، ج1-2، ص 517-518.

(30) التاذلي(ابن الزيات)، التشوف، ص 54.

(31) البستان، ص 253.

(32) المصدر السابق، ص254.

(33) المصدر نفسه، ص ص 255-256.

(34) المصدر نفسه، ص 256.

(35) نفسه، ن.ص.